

سنة أهداهم رجال الفكر في عصر الهروب العليوية :

ابن دقيق العيد

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

تق الدين أبو الفتح محمد بن محمد الدين أبي الحسن علي بن وهب
ابن مطيع القشيري .

ولد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥
بظهر البحر الأحمر ، قريباً من ساحل مدينة بنبع بالحجاز ، وأبواه
متوجهان من قوص للحج ، قالوا : رحله والده علي بديه ، ودعا
ربه ، وهو بطوف به الكعبة أن يجعله من العلماء العاملين ،
فاستجاب الله دعوته .

وكانت أسرة ابن دقيق العيد قد أخذت قوص موطناً لها
بعد أن هجرت مدينتها الأولى منفلوط ، فنشأ الفتى بقوص ،
وكانت من أهم مراكز الثقافة في ذلك الحين ، لحفظ القرآن
الكريم ، ثم درس فقه مالك على والده الذي كان من أئمة المالكية ،
كما أخذ عنه الحديث والأصول ، ودرس في قوص على غير والده
أيضاً ، فأخذ فقه الشافعية عن تلميذ والده بهاء الدين القفطي ،
ودرس الأصول على عم من أعلام هذه المادة وهو شمس الدين
الأصبهاني ، والنحو على شرف الدين المرسي ، ثم رحل في طلب
العلم إلى القاهرة والألكندرية ودمشق والحجاز ، وأخذ عن كبار
علماء عصره مثل الحافظ المنذرى وعز الدين بن عبد السلام ،
وعليه درس فقه الشافعي أيضاً ، وبهذا أتقن وهو شاب مذهبي
الشافعي ومالك إتقاناً عظيماً بلغ به درجة الإفتاء بهما ، وقد قال فيه
ابن القويح من قصيدة بمدحه بها :

صيا للعلم صبياً في صبابة فاعزّل بهمة الصب الصبي
وأنتن والشباب له لباس أدلة مالك والشافعي
وعاد الشاب إلى مدينته وقد درس الفقه على المذهبيين ، وأصول
الفقه ، والحديث وعلومه ، وعلم الكلام ، والتفسير والنحو واللغة
والآداب ، وكان أكبر ما امتاز فيه الفقه والحديث .

أما في الفقه ، فقد ارتفع عن مستوى التقليد المطلق الذي

يقف فيه عند نصوص الأئمة لا يجيد عنها ، بل يرتفع إلى حيث
يستخلص الأحكام من أداتها في الكتاب والسنة .

قال مؤرخه فتح الدين اليمري : « وكان حسن الاستنباط
للأحكام والمناق من السنة والكتاب ، بلب يسحر الأبواب ،
وفكر يفتح له ما يستطلق على غيره من الأبواب ، مستعيناً على
ذلك بما رواه من العلوم » .

وقال عنه أبو حيان : « هو أشبه من رأيناه يميل إلى الاجتهاد »
ولعل ابن دقيق العيد كان يرى نفسه مجتهد عصره ، فإنه
كان يؤمن بأن كل وقت لا يخلو من مجتهد . وقد وضع كتاب
الإمام ، جمع فيه الأحاديث التي يستنبط منها الأحكام ، مما يدل
على ما وصل إليه من درجة ممتازة في الاستنباط والاستدلال .
وأما في الحديث ، فقد برع في معرفة متنه وإسناده وعقله ،
حتى أصبح أوجد عصره فيه ، وله في علوم الحديث مؤلف دعاه
« الاقتراح في سرقة الاسطلاح » ، وإليه أسند والي قوص
التدريس في دار الحديث التي أنشأها بها .

وقد ساعده على بلوغ هذه المنزلة من العلم ذكاء ممتاز ، ودأب
على التحصيل ، وسهر بالليل للدرس ، وشبه في القراءة ، وغرام
بالاطلاع . قال الأديب في الطالع السعيد : « كان له قدرة على
المطالعة . رأيت خزائن المدرسة النجيبية بقوص فيها جملة كتب ،
من جللتها عيون الأدلة لأن القصار في نحو من ثلاثين مجلدة ،
وعليها علامات له . وكذلك رأيت كتب المدرسة السابقة ،
رأيت على السن الكبير لبيحتي ، فيها من كل مجلدة علامة ،
وفيها تاريخ الخطيب كذلك ، ومعجم الطبراني الكبير ، والبسيط
للواحدى ، وغير ذلك » ؛ وأخبرني شيخنا الفقيه مراج الدين
الترغزي أنه لما ظهر الشرح الكبير للرافعي اشتراه بألف درهم
وصار يصل القرائن فقط ، واشتغل بالمطالعة إلى أن أنهاه مطالعة .
ويقال إنه طالع كتب مكتبة المدرسة الفاضلية من آخرها ، وكانت
ذات مكتبة ضخمة حافلة .

ولم يترك جانب غرامه بالقراءة كان كثير النقد والتحرى والتدقيق
فيما يقرأ ، لا يقبل الشيء من غير أن يعمل فيه فكره فيقبله
أو يرفضه .

ولعل كثيرين من مقدريه ومارقي فضله قد تصوره بمخادرة

الفتحة هل مذهبي الشافعي ومالك بالمدرسة الفاضلية ، كما درس أيضاً بالمدرسة السالحية والعبية المنصورة .

وسع ذلك لم يُبهر ابن دقيق العيد ، بل لم يدفع من نفسه شر النقابة ، وكان يضطر إلى الاستدانة أحياناً ، وإن كان قد ظفر أخيراً بالقراء والرخاء ، فاستمتع وأكثر من التسرى ، وكان ينسى حظه قائلاً :

سحاب فكري لا يزال هامياً وليس لي لا آراء واحلا
قد أنصبتني هممتي ونطنتي فليتنى كنت مهيناً جاهلاً
وربما كانت رغبة ابن دقيق العيد في الاستمتاع بمهاج الحياة هي التي دفنته إلى أن يعترف للشيخ زكي الدين بأنه أدين منه .
حكى تاج الدين الدشتاوي قال : « خلوت به مرة فقال : يا فتية ، أفزت برؤية الشيخ زكي الدين عبد العظيم ؟ فقلت : وبرؤيتك ؟ فكرر الكلام ، وكررت الجواب ؛ فقال : كان الشيخ زكي الدين أدين مني ؛ ثم حكى ساعة وقال : غير أنني أعلم منه !

وظفر ابن دقيق العيد بشهرة واسعة ، وصوت بيده ، وتقدير عميق في قوص والقاهرة ، حتى في أيام أسانفته . وفي سنة ٦٩٥ ولى قضاء قضاء القضاة في البلاد المصرية ، وقد استقبل كثير من مقدره قبله هذا المنصب بشيء من الشبه عليه والهم ، ورأوا فيه خطأ من عظيم قدره ، وكانوا يفضلون بعده عن مناصب السلطان ويسدون ذلك زلة له ، ولكن لا أوافقهم على ما ذهبوا إليه ، ولا سيما أن ابن دقيق العيد كان أحب الناس برعاية الحقوق وإحقاق العدالة ، ورسائله إلى من كان بينهم من القضاة يحثهم فيها على تحرى الحق ، ويخوفهم من الظالم ، ويشهرهم بما عليهم من التهمة تدلنا على مقدار ما ظفر به المنصب يوم حله هذا العالم المتأز . وكان هرفسه يشمر بشمل السب الملقى عليه ظنياً ، فكان يقول : « والله ما خلواته لمن يبل بالقضاء » ؛ ويقول : « لو لم يكن إلا طول الوقوف له ذوال والحساب لكني » . وأثر منه في القضاء آثار حسنة ، منها النزاع أوقف كانت أخذت واقطعت لقطبين ، ومنها أن القضاء كان يخلع عليهم الحرير ، فخلع على الشيخ الصوف واستمرت ، ورتب على الأوصياء مباشرة من جهته ، وكان يكتب إلى نوابه يذكرهم ويحترمهم .

ولم ينجح ابن دقيق العيد وهو في منصب القضاء من ساخطين

قوص إلى القاهرة ، حيث يظفر فيها بالتقدير وبعد الصوت والرزق الواسع ، وحيث يجد المجال واسعاً للذبح مله والشهرة ورفيع المنصب ، وقد تردد ابن دقيق العيد في قبول هذا المرض ، ظناً منه أن نيل ذلك كله لا يكون إلا بفقد شيء من الكرامة ، والتهاون في كثير من أمور الدين ، وهو يحدثنا عن ذلك في قوله :

يقولون لي : « هلا نهضت إلى الملا فما لذ عيش الصابر المتنع
وهلا شددت العيس حتى تحملها بصبر إلى ذاك الجانب المرغ
ففيها من الأعيان من فيض كفه إذا شاء روى سبيله كل بلقع
وفيها قضاء ليس يمنى عليهم تيقن كون العلم غير مضيق
وفيها شيوخ الدين والفضل والأول

يشير إليهم بالمشلا كل أصبح
وفيها ... وفيها ... والمهابة ذلة
قم ، واسع ، واقصد باب رزقك ، واقرحه
قلت : « نعم أسي إذا شئت أن أرى

دليلاً مهاناً مستحقاً لموضع
وأسي إذا ما لد لي طول موقن على باب محبوب القاء بمنع
وأسي إذا كان التفاق طريقتي أروح وأغدو في ثياب التصنع
وأسي إذا لم يبتني في بقية أراعي بها حق التق والتورع
وكم بين أرباب الصدور مجالس يشب لها نار النضا بين أضلع
نابا تروق مسلك الدين والنهي وإما تاق خمسة المتجرع »
وكان في صميم قلبه يرجو أن يظفر بالرفعة من غير أن يتقد في سبيلها كرامته ، وهذا هو السر في نغمته على أرباب المنصب الذين لم يعرفوا قدره ، ولم يتزلوه ما هو جدير به من رفيع المنازل ، نحس بذلك في قوله :

أهل المناسب في الدنيا ورفعتها أهل الفضائل مهذولون بينهم
قد أنزلونا لأننا غير جفهم منازل الوحش في الإهمال عندم
فما لهم في تروق ضرنا نظر وما لهم في تروق قدرنا هم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم مقدارهم عندنا أرو دروهم
لهم مريحان : من جعل وفرطه في وعندنا التميان : الدم والدم
ولكن يظهر أن الحالة السالفة لابن دقيق العيد دفنته إلى الجس ، إلى القاهرة ، حيث ولى المدرسة السالحية سنة ٦٨٠ ، ودرس الحديث بدار الحديث الكاملية وكان له منزل بها ، وعلم

عليه ، هجوه بالشرح حيناً ، وبالأرجل حيناً آخر . قال بهان الدين
المصرى الخنق الطيب ، وكان قد استوطن قوص سنين : « كنت
أبشر وفقاً فأخذه منى شمس الدين محمد بن أخى الشيخ وولاه
لآخر ، نزل على » ، ونظمت أياتاً فى الشيخ فيلنته ، فأننا أمسى
مرة خلفه وإذا به قد التفت إلى وقال : « يا قتيبه ، بلغنى أنك
هجوئى ؟ » فكنت زماناً فقال : « أنشدنى » ؛ وألح على ،
فأنشدنى :

وليت فولى الزهد عنك بأسره وبان انا غير الذى كنت تظهر
ركنت إلى الدنيا وعاشرت أهلها ولو كان عن جبر لقد كنت تضر
فكنت زماناً ، ثم قال : ما علمك على هذا ؟ فقلت : أنا رجل فقير ،
وأنا أبشر وفقاً فأخذه منى فلان ؟ فقال : ما علمت بهذا . ورد
الوقف إليه .

وارتفعت منزلته عند سلاطين مصره ، فكان السلطان لاجين
يترك له من سريره ويقبل يده . وفى سنة ٦٩٨ بعد وفاة الخليفة
المباسبى الحاكم بأمر الله ، أرسل إليه السلطان الناصر محمد يستشير
فيمن يوليه الخلافة بعده .

واستمر ابن دقيق العيد فى منصب القضاء ، وإن كان قد
هزل منه نفسه أحياناً ، حتى مات يوم الجمعة حادى عشر صفر
سنة ٧٠٢ ، ودفن يوم السبت بسفح القطم .

قال الأذنفوى فى الطالع السعيد : « وكان ذلك يوماً مشهوداً
هزيراً فى الوجود ، سارع الناس إليه ، ووقف جيش مصر ينتظر
الصلاة عليه ، رحمه الله تعالى ، وهو ممن تألت على قوات رؤيته ،
والتقى بفوائده وبركاته » .

ورداه الشريف محمد بن محمد القوصى بقصيدة طويلة منها قوله :
سيطول بمدك فى الطول وتوفى أروى الثرى من مدسى القروى
لو كان يقبل فيك حينك قدية لصدت من عطائنا بألوف ا
يا طالبى المروف ، أين مسيركم ؟ مات الفنى المروف بالمروف ا
ما عتف الجلاء قط ، ونفسه لم يخلها يوماً من التمنيف
يا مرشد الفتيا إذا ما أشكت طرق الصواب ، ومنجد لللهوف
من للضعيف بينه أنس أنى محتصرخاً ، يا غوث كل ضعيف
أنيت عمرك فى تقى وعبادة وإفادة للمسلم أو تصنيف

لحقى على حبر ، بكل فضيلة عليه من زمن الصبا مشفون
كان الخفيف على تقى مؤمن لكن على الفجار غير خفيف
أمت أحاديث الرسول به من التبديل والتعريف والتصحيح
ومضى وما كتبت عليه كبيرة من يوم حل بساحة التكليف
سبراً بنيه ، قرة من بعده صبر الكريم الماجد الشطريف
كارثاء جماعة من الفضلاء والأدباء بالقاهرة وقوص .

ورثك كثيراً من الأولاد ، فكان له من الذكور عشرة
سماهم بأسماء الصحابة ، وأخذ عنه عدد منجم ينبغ من بينهم جم
فقير صار منهم المحدثون والتحويرون وقضاة القضاة .

وأنت كثيراً من الكتب : منها كتاب الإسلام ، الجامع
أحاديث الأحكام ، وقد أنشئ الملاء ثناء جم على هذا الكتاب ،
حتى ادعى بعضهم أنه ما وضع فى هذا الفن مثله . وقال عنه
تقى الدين بن تيمية : « هو كتاب الإسلام » وشرح فى شرحه ؛
ولكن يظهر أنه لم يتمه . وقد اشتمل الشرح فضلاً عن الأحكام
المتنبطة على أنواع أدبية ، ونكت خلافية ، ومباحث منطقية ،
ولطائف بيانية ، ومواد لغوية ، وأبحاث نحوية ، وعلوم حديث ،
وملح تاريخية ، وإشارات صوفية . ومنها كتاب الإمام فى
الأحكام ، وهو فى عشرين مجلداً ، وشرح كتاب التبريزى فى
الفقه ، ومقدمة الطرزى فى أصوله ، كما شرح بعض مختصر ابن
الحاجب فى الفقه ، ووضع فى علوم الحديث كتاب الاقتراح فى
معرفة الاصطلاح . وله مصنف فى أصول الدين .

وكان ابن دقيق العيد إلى جانب امتيازته فى التدريس والتأليف
خطيباً بارعاً سمى الشاعر المروف أبو الحسين الجزاز وهو بخطب
بقوص فأعجب ببلاغته ، ثم أنشده مادحاً له :

يا مسيد الملاء ، والأدباء ، والبلاء ، والخطباء ، والحفاظ
شفتت أسمع الأنام بخطبة كمت المعانى رونق الألفاظ
أبكت ميون الساسين فصولها فركت على الخطباء والوعاظ
ستقول مصر إذ وأنتك لتبرها ما النهر إلا قسمة وأحاط
ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم : أنيتنا قسماً بحرق عكاظ
وجمع له ديوان خطب .

وكان يقول الشعر ، وقد رأينا بعض نماذج له ، وتستطيع

إلى آخر درجات الإحباب . فهذا فتح الدين بن سيد الناس يقول :
« لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا سمعت أني بأجل منه فيما رأيت
ورويت ، لا بشئ له فبار ، ولا يجرى منه سواء في مضمار » .
وقال الذهبي عنه : « كان إماماً متفتناً ، مجوداً محرراً ، فقيهاً
مدهتماً ، فواصلاً على المطاني ، وافر العقل ، كثير الكفاية ، تام
الورع ، سمياً ، جواداً ، زكي النفس ، عديم الدعوى » .

أما السبكي فيقول عنه : « شيخ الإسلام ، الحافظ الزاهد
الورع ، الناسك المجتهد المطلق ، ذو الخيرة التامة بطول الشريعة ،
الجامع بين العلم والدين ، وللناسك سبيل الأندلسين ، أكل
التأخرين وبحر العلم الذي لا تكفركه الدلاء ، وسعدن الفضل الذي
لقاصده منه ما يشاء ... ولم تدرك أحداً من مشايخنا يختلف في
أن ابن دقيق العيد هو العالم المبروث على رأس السجاعة ، وأنه
أستاذ زمانه علماً وديناً » .

وذكره ابن أبي الإصبع صاحب كتاب البديع في كتابه
فقال : « هو من الذكاء والبرقة على حالة لا أعرف أحداً في زمني
عليها » .

وهكذا ظن ابن دقيق العيد بإحباب لا حد له ، ولا يزال
إلى اليوم يذكر في الفقه عظامهاالة من الإكبار والإجلال .

أحمد أحمد بروي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الراجع :

- (١) الفرد السكينة - ٤ من ٩١
- (٢) فوات الوفيات - ٢ من ٢٤٤
- (٣) النجوم الزاهرة - ٨ من ٨٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢
- (٤) السلك للفرزى الجزء الأول في مواضع شتى
- (٥) حطط الفرزى - ٤ من ٢٥١ و ٢٦٢
- (٦) طبقات الشافعية للسبكي - ٦٦ من ٢
- (٧) طبقات الحفاظ للسيوطي - ٢٠ من ٦٥
- (٨) حسن المحاضرة له - ١٦ من ١٤٤ و ٢٠ من ١١٤ و ١٥٧ و ١٥٩
- (٩) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس من ٤١٧
- (١٠) الطالع السعيد من ٢٩ و ٧٢ و ٢٢٧ و ٢٥٢
- (١١) الديباج المنصب من ٢٨٢
- (١٢) تذكرة الحفاظ للذهبي - ٤ من ٢٧٧

بقراءته أن تعرف بعض خلجات نفسه ، وروى مؤرخوه كثيراً
من هذه النماذج ، تقمصه حيناً بنتم على حظه ويقول :

الحد لله ، كم أسي بزمي في نيل السلا ، وقضاء الله بفسكه
كأن البدر أبش الشرق والفتك الأعلى بمرض مساء فيسكه
كما جار مرة أخرى بالشكوى من الفتر حين قال :

لمعري ، لقد قاسيت بالفقر شدة وقت بها في حيرة وشتات
فإن بحث بالشكوى هتكت مهووت

وإن لم أبح ، بالصبر خفت عمان
وأعظم به من نازل بلمة يزبل حياتي أو يزبل حياتي
ويلجأ إلى الله قاتلاً :

وقائلة : مات الكرام ، فن لنا إذا مضنا الدهر الشديد بناه
قتلت لما : من كان غاية قصده سؤالاً لظفوق نليس بناه
لئن مات من رجب فمطيم الذي يرحبه باق فلودوا بيباه
وتلس حبه لوقار وغرامه به ، حتى قالوا : إن الماد يستطيع
إحصاء كلامه ، لأن كثرة الكلام تذهب بالوقار في قوله :

تمتت أن الشيب عاجل لمتي وقرب مني في صبأى مزاره
لأخذ من مصر الشباب نشاطه وأخذ من مصر الشيب وقاره
وله شعر كثير في مدح الرسول ، ومن ذلك موشحة أوردها
صاحب الفوات منها قوله :

بني العزل لتوحيد من بمدده وأرجب ذل الشركين بمجده
مزير قضى رب السماء بمدده وأيده عند اللقاء يجنده
فأورده لشمع أعظم مشرع

وله شعر لا يخرج من طريقة أهل مصره الذين أفرموا بالحج
والهضات البديعية ، ومجد له نماذج في كتبه وفي الطام السعيد ،
كما كان مطلقاً على كتب الأدب ، حتى لقد كان الشهاب محمود
يقول عنه : « لم تر عيني آدب منه » .

ويشئ مؤرخوه على أخلاقه الاجتماعية والتضحية ، وكان
خفيف الروح لطيفاً على نسيك وورع ، ودين سبغ ، يقابل
الإساءة بالطف والإحسان ، شفيقاً بالمتنلين ، كثير البر لهم ،
جواداً كريماً ، يحاسب نفسه ويشدد في حسابها .

كل ذلك قد دفع معاصريه ومؤرخيه إلى أن ينعروه بإحبابهم